بيت العيلة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى 2025

دار العرّاب

للدراسات والنشر والترجمة

دمشق ـ سورية ـ حلبوني الجادة الرئيسية

هاتف: 00963112247432

جوال: 00963940455593

daralaraab@gmail.com

سامر بن سليم السعدي

بيت العيلة

روايـة

الفصل الأول

أخرج صلاح الدين مفتاح باب البيت الذي مالبث أن فُتح على مصراعيه، بعد أن قام بدفعه بقوة لينفتح متسللاً منه النور والهواء المشحون بالبرودة الخريفية، دخلت نور أولاً أما صلاح الدين فقد عاد إلى السيارة لإحضار بعض الأشياء التّي جئنا بها معنا، وقفت للحظات لتأمل البيت من الخارج وأنا ابتسم لشريط الذكريات التي مرت بذاكرتي، وماهي إلا لحظات حتى شعرت بأطرافي يتسلل إليها الخدر، فقد بدأت تتجمد إذ كان الجوّ بارداً، فدخلتُ على الفور، ما زلت إلى اليوم أسمي البيت ببيت العيلة رغم أنه أصبح لي، لقد كبرت في هذا البيت، أتذكر كيف أنني عشت طفولتي فيه واستمتعت بدفء العائلة إلى أن جاء اليوم

الذي توفيت فيه جدتي ورحلنا من البيت، ذلك أصعب ما حدث لأني كنت متعلقة بكل جزء فيه هناك حيث كان جميلاً وصافياً وطبيعياً، إنه بيت العائلة التي عاشت بداخلها أجيال عدة وتوارثه عدة أجداد.

لقد كان البيت واسعاً جداً، وفي وسطه بحرة ماء يجلس حولها أصحاب البيت في الصباح حيث يحتسون القهوة ويستمتعون بصوت خرير نافورة الماء وسط البحرة، ككل البيوت الدمشقية القديمة، تتشابه في تصاميمها، فعند المدخل سقيفة فيها غرفتان متقابلتان واحدة كبيرة للضيوف، والأخرى دأب جدي على الاجتماع فيها قديماً مع بعض المشايخ وحفظة القرآن لإقامة حلقات ذِكر أو ترتيل لآيات القرآن الكريم وقراءة كتب الفقه، بقيت الغرفة فارغة إلا من ماكينة خياطة قديمة، من تراث جدتي، وبعض اللوحات القرآنية المرصوصة بانتظام فوق بعضها البعض، كان

جدي يستعملها لتحفيظ طلبته القرآن وذلك بكتابة السور الصغيرة عليها بواسطة الدواة وقلم القصب وبعد الحفظ تغسل اللوحة بالماء والصلصال.

مشيت بضع خطوات وفتحت الباب الذّي يؤدي إلى حوش كبير، أثناء وقوفنا عند الباب تقابلنا العديد من الغرف، فعلى اليمين غرفة نوم صغيرة، كانت هذه الغرفة لعمي علي رحمه الله الذي قُتل من قبل الفرنسيين أيام الاحتلال الفرنسي، أخبرتني جدتي بأنه اشتبك مع جنود فرنسيين فقام أحدهم بقتله، لم تكن جدتي تسمح لأي أحد بالدخول إلى الغرفة، أغلقتها منذ وفاته ولم تُفتح إلا بعد وفاتها، في ذلك اليوم الذي كنا سننتقل فيه إلى بيت آخر أتذكر أنني جبت كل الغرف والدموع تنهمر من عينيّ، دخلت غرفة عمي علي وهي غرفة صغيرة بها خزانة من حطب الخيزران وسرير مصنوع من الحديد، وعلى الأرض حصيرة قديمة جداً تفتتت

أطرافها، وعلى الجدار صورة لعمي علي، الصورة الوحيدة التي رأيتها له، كان ذا وجه ممدود ينبض جرأة ويضج عنفوانا، له عينان سوداوان جميلتان ويظهر في ملامحه النبل، يرتدي طربوشاً أحمر ويلف حول عنقه وشاح أبيض يربطه بخيط من وبر، كلما وقفت أمام الصورة أتذكر قول أبي عنه بأن حضوره ذا مهابة وهيبة، كان قليل الكلام سوي الطوية، حسن المظهر والمبطن، طيب السحنة والمبسم.

خرجت من غرفة عمي علي ومشيت بضع خطوات، كانت أوراق الأشجار المتيبسة تملأ الأرض من الاهمال، والرياح عبثاً تحاول بعثرتها هنا وهناك، بجانب غرفة عمي علي يوجد خزان ماء كبير مصنوع من الحديد، تآكلت كل أطرافه ولم يعد صالحاً للاستعمال، وإلى الأمام توجد حديقة تتوسط البيت محاطة بسور نُحِت في وسطه وعلى جانبيه مزهريات

سبغت بالحجر الأبيض المزين بالموزاييك الدمشقي، في وسط الحديقة العديد من الأشجار مثل شجرة الرّمان وشجرة الليمون وكذلك أصص الحبق والريحان ، وعلى الجوانب غرست مختلف الزهور مثل النرجس والسوسن وزهور الأقحوان كانت ذابلة كلها فقد ماتت من شدة العطش، أما الأغصان فباتت يابسة لا روح فيها، حظيت هذه الزهور في الماضي بعناية خاصة من جدتي لأنّها كانت تحبها وتعمل على غرسها والاعتناء بها دائما، وقد ورثت عنها حب الأزهار خاصة حبي لشجرة الليمون الموجودة بجانب المطبخ، قبالة الحديقة يوجد غرفتان بجانب بعضهما وُضعت فيهما الأشياء القديمة والأثاث غير اللازم، قديماً كانت الغرفتان واحدة لأبي وأمي وواحدة لعمي عبد المجيد وزوجته إيمان.

على جانب إحدى الغرف حديقة أخرى صغيرة يقابلها المطبخ وغرفة نوم لجدتي، ويقابلها من الجهة الأخرى مصلّى جدي، كنا نسميه مصلّى سيدي محي الدين ، مكان مرتفع حوالي نصف متر عن الأرض وطوله حوالي متر ونصف المتر وفوقه حجر بازلتي لا يزال في مكانه، كنت أتنقل من زاوية إلى أخرى كأنني أكتشف عوالم جديدة على الرغم من أنني أعرف المكان من قبل.

دخلت المطبخ فوجدت الغبار يغطي كل شيء، ولكم يعجبني هذا المطبخ بتفاصيله القديمة وأوانيه الفخارية والنحاسية القديمة، عند الدخول إلى المطبخ نجده مقسوماً إلى نصفين بواسطة قنطرة تنتهي من كلا الجهتين بموقد وفوق كلّ موقد رفّ، على كلّ رفّ وضعت أوانٍ نحاسية وفخارية وأوانٍ من الفخار، ففي الموقد الذّي على الجهة اليمنى صينية كبيرة من النحاس

دائرية الشكل، وعلى جانبيها إبريقين من النحاس وفي الموقد الآخر على رفه أوانٍ فخارية، علق على أحد الجانبيبن طبق مصنوع من الخيزران كانت جدتي تضع فيه الخبز الذي تعمل على خبزه وطهيه في كل صباح حتى تشعر بأن رائحته مازلت تملأ المكان.

في الجزء الأول من المطبخ وعند الدخول من الباب تقابلنا طاولة كبيرة حولها مجموعة من الكراسي المطعمة بالموزاييك، وعلى الأرض فُرشت سجادة مزركشة مصنوعة من النسيج اليدوي ، عملت جدتي على نسجها فتركتها على حالها ولم أغيرها سوى إنني أقوم بغسلها في الأيام التي أمضيها هنا، في الجزء الثاني للمطبخ بيت المونة لوضع مختلف الأشياء الخاصة به، مثل الملح والسكر والقهوة، وضع على جانبه رفوف من خشب لوضع الخضر يقابلها ثلاجة صغيرة وقديمة غير إنّها ما زالت صالحة للاستعمال وتبريد الأشياء،

على الجهة الأخرى سلة صغيرة خاصة بالأطباق والفناجين كنت قد اشتريتهم في آخر زيارة لي إلى البيت.

أتذكر أن جدتي كانت مولعة بالطبخ، حيث كانت تعد أشهى المأكولات الشامية، خاصة الأكل التقليدي، فتقضي معظم وقتها في المطبخ، أو تجلس عند المنسج وتبدع في نسج سجادة أو مكاحل أو قشابية، وتبقى حتى ساعات متأخرة من الليل، وأحياناً نسهر معها ونستمتع بحكاياتها التي تأسرنا بأحداثها الشائقة، كانت جدتي امرأة جميلة جداً، طويلة القامة قليلاً ونحيفة، لها عينان زرقاوان وترتدي ألبسة أنيقة وغالباً ما تكون باللون أبيض الطويل، دائماً ما كنت أرى جدتي امرأة قوية وصبورة أحيانا أجد أن أمي تشبهها فقد ورثت عنها قوتها وصلابتها وصبرها، إذ أنها ربتنا واجتهدت

على توفير كلّ ما تتطلبه حياتنا قبل أن نطلبه، وتحملت عناء ذلك في مجتمع لا يؤمن إلا بالذكورية.

بجانب المطبخ غرفة صغيرة لجدي، أخبرتنا جدتي في إحدى المرات بأن الغرفة له، ولم يكن يحب أن يزعجه أيّ أحد وهو داخلها، لأنّه كان يقضي بعض أوقاته بالكتابة ويتطلب منه ذلك الكثير من التركيز والهدوء، حيث كان يؤلف كتباً في الفقه والدّين ويكتب بخط يده فقط فقديماً لم تتوفر آلة للكتابة أو الطباعة، وبعد أن مات جدي أصبح أبي وأعمامي يقضون أمسية الجمعة في هذه الغرفة، دخلت الغرفة التي لم يكن بها إلا خزانة صغيرة وقديمة، كنت قد وضعت فيها المخطوطات الأدبية الروائية والقصصية التي كتبتها آخر مرة وبعض الكتب القديمة، وبمحاذاة الخزانة هنالك طاولة صغيرة كسر أحد أطرافها.

بينما كنت أتجول من غرفة إلى أخرى كانت نور تلعب مع سلحفاة وجدتها داخل الحديقة، أما صلاح الدين فتركته في المطبخ يتفرج على الأخبار بواسطة هاتفه.

الفصل الثاني

لم يخطرفي مخيلتي بأنه سيأتي يوم أزور هذا البيت بدون مراد، كنت دائما آتي إلى هنا برفقته منذ أن اشترى لي بيت العيلة وأهداني إياه يوم زواجنا، اعتدنا المجيء إلى هنا لنقضي أيام العطلة ونستمتع معاً بالعزلة أنا ومراد فقط، وأحيانا آتي إلى هنا لأمارس هوايتي المفضلة في كتابة بعض القصص والروايات، وضعت طاولة خشبية وكرسيّاً بجانب النافذة المطلة على حديقة الورود، ولطالما جلست بجانب شجرة الليمون أكتب أو أقضي ساعات طوال في المطالعة، وأوقات كنت أجلس مع مراد نتبادل الأفكار أو نتناقش حول بعض الكتب والكتابات، قضينا أياماً جميلة هنا واستمتعنا بأحلى اللحظات ، التي لايمكن أن أنساها ما حييت

فلطالما كانت هي مؤنسي الوحيد في وحشتي وحين أشعر بالضيق والضجر من روتين الحياة، يهفو قلبي من غير إرادة مني فأعيشها بكل معانيها وصورها.

بعد تأمل عميق في أرجاء البيت قمت وغيرت ملابسي التي كنت أرتديها ولبست ثوباً منزلياً خفيفاً لايعيقني في الحركة في عمل البيت، فلطالما كان مراد يشعر بالجاذبية لتلك الأنواع من الثياب إذ كان يقول لي:

ـ تظهر في ثياب المنزل أنوثة المرأة وجمالها الطبيعي.

أما أنا فقد كنت أتعمد القيام بحركات خجولة تجعله أكثر إثارة وأنا أتغنج بكلماتنا الشامية المعروفة.

عندما باشرت التنظيف بدأت بغرفة النوم كي أنام فيها أنا و نور، كانت مؤثثة بخزانة وسرير وتلفاز

اشتراهم مراد للأيام التي نقضيها هنا، فالأثاث الأول مهترئ وقديم، كما نظفت طاولة الكتابة الصغيرة مع كرسيها بجانب النافذة ومسحت الغبار الذي طمس أديمها، أما صلاح الدين فنظفت له الغرفة الموجودة بجانب المطبخ ووضعت له فيها سريراً أحضرته من إحدى الغرف التي كنت قد وضعت فيها الأثاث القديم، ثم ذهبت إلى المطبخ لتنظيفه وأنا أستمع لأغاني فيروز على الراديو الموجود فوق رف الموقد، بدأت أولاً بغسل الأواني الموجودة في السلة لأنها كانت مغطاة بالغبار، أما الأواني النحاسية فاكتفيت بمسحها بخرقة مبللة بالماء، ثم نظفت الثلاجة ورميت بعض المعلبات التي وجدت أن صلاحيتها قد انتهت بعدها أحضرت بعض الحطب ووضعته في الموقد وقمت بإشعاله، ثم وضعت الطعام الذّي اشتريناه في أطباق ووضعته على الطاولة التي قمت بغسلها وتنشيفها

جيداً وناديت كل من نور وصلاح الدين لنتناول الغداء معاً، كان الجوع قد نال منا وأخذ تعب الطريق نصيبه من أجسادنا هو الآخر.

وبعد الانتهاء من طعام الغداء الذي أعددته بشكل سريع، حضّرت القهوة وتناولت أحد الكتب التي أحضرتها معي وجلست قرب الموقد، أما نور فجلست تلعب بهاتفي حتى استسلمت للنوم، أخذتها إلى الغرفة ووضعتها على السرير وغطيتها جيداً، بينما ذهب صلاح الدين إلى الغرفة التّي أعددتها له وأشعلت له مدفأة صغيرة تعمل على الكهرباء.

كان صلاح الدين ونور سعيدين جداً بالمجيء إلى البيت، فآخر زيارة لهما كانت قبل أن يموت والدهما مراد كان صلاح الدين حينها في الثانية عشرة من عمره ونور لم تتجاوز الخمس سنوات، لازلت أتذكر تلك الزيارة التي ربما كانت خالدة في حياتنا لأننا كنا معاً مع

والدهما الذي ما زلت أتخيل صورته في كل ناحية من البيت، بل يتجسد في أبهى صوره التي أحببتها، فكيف لي أن أنساها؟!

الفصل الثالث

على الرغم من حالة التعب التي كنت أعيشها، والنوم العميق الذي سيطر علينا في بيت العيلة، لكنني في صباح اليوم الثاني نهضت باكراً، كانت نور نائمة وصلاح الدين في الغرفة الأخرى نائماً أيضاً، غطيت نور جيداً وخرجت من الغرفة، إذ كان البرد شديداً لكن حالما راودتني بعض الذكريات أشعرتني بدفء يشبه دفء صباحات العائلة حين تتحلق حول مائدة القهوة وتتبادل الأحاديث والحكايات قرب الموقد في الشتاءات الباردة، لا أعلم لما ذكّرني هذا الصباح بالصباحات التّي كنت أسمع فيها بائع الحليب الطازج الذي يأتي من قرى الغوطة القريبة من دمشق، وهو ينادي من بعيد فأرتدي معطفي بسرعة وتعطيني جدتي

بضع ليرات لأشتري منه الحليب كانت صباحات مليئة بالدفء رغم برودة الشتاء، وتذكرت كذلك تلك الأيام التي كنت أسمع فيها مزمار الشيخ "عدنان الخباز " هكذا كانوا ينادونه في حارات دمشق القديمة، حدث ذلك في نهاية الستينيات أتذكر أنّه رجل كبير في السن يلقب "بعدنان الخباز" كان يأتي حاملاً معه مزماره الذّي يصدح به في أزقة المدينة ويطربنا بين الفينة والأخرى ينادي من بعيد كل باسمه كنا نأتيه بالتمر والحليب أو الخبز والقهوة ويعطينا بعض الحلوى والمعسّلية أو شيئا مما حصل عليه من عند شخص آخر كالثمار المجففة، وحين يشبع كان يصدح بمزماره معلناً عن ذهابه، كنا صغاراً جدا نفرح كثيراً حين يأتي، لحظات تشبه صباحات الأعياد والمناسبات السعيدة، مازالت إلى الآن ترافقني العديد من الأشياء مثل رائحة الخبز الذي

كانت تعده جدتي، ألعاب الطفولة المتناثرة في أرضية البيت.

مشيت قليلاً في الحوش الكبير وجلست على سور الحديقة كانت الرياح خفيفة تهز أشجار الليمون والياسمين فتنبعث رائحتها في كلّ مكان، أمام شجرة اليمون التي تكبرني عشر سنوات كما كانت تقول جدتي، كنت أجلس وأنا صغيرة أصنع عرائس من بقايا المواد المستعملة من البلاستيك وأطواق الخرز، وأخيط ملابس لدميتي الصغيرة وعندما كبرت قليلاً كنت أجلس لأطالع كتاباً أو أقرأ شيئاً ما وبعدها أصبحت أجلس هناك لأكتب.

قرب الحديقة الصغيرة لي صورة مع أمي أحبها كثيراً، في تلك الصورة كنت أرتدي تنورة حمراء وشعري منسدل على كتفي، وأمي ترتدي بدلة بنية اللون وشعرها الأسود الطويل مرفوع قليلاً الى الخلف،

وخلفنا العديد من أصص الريحان والحبق والأزهار الملونة كنا نبدو في غاية السعادة كانت هذه الصورة الوحيدة التّي أحتفظ بها وأحبها جداً، في هذه الأثناء خرجت نور من الغرفة فذهبت مسرعة نحوها لأضع عليها شيئاً يقيها من البرد، ودلفت إلى المطبخ أشعلت الموقد ووضعت الماء على النار لأعدّ القهوة ثم أحظرت صينية النحاس الكبيرة وضعت فيها فناجين القهوة وإبريق الحليب وصحناً صغيراً فيه الزبدة وصحناً آخر وضعت فيه معجون المشمش، ووضعت إبريق القهوة في طرف الموقد ليبقى ساخناً وماهي إلا لحظات حتى جاءت نور ثم بعدها دخل صلاح الدين، وهو يتمطط متثائباً.

ـصباح الخير أمي.

ـصباح النور حبيبي.

هل نمت جيدا ؟

ـ أجل يا أمي، كنت متعباً نمت من دون أن أشعر بأي شيء، لكنه كان نوماً هانئاً وعميقاً بآن واحد.

ـ تعال واجلس لتتشرب القهوة، أجل حبيبي هذا هو سر محبتي لبيت العيلة الذي يشدني إليه في كل شيء.

انتبهت إلى باب المطبخ المفتوح فأغلقته كيلا يتسلل البرد ويدخل إلينا، ثم جلست معهما قرب الموقد نحتسي القهوة، ورحت أحدثهما عن البيت وعن تفاصيله قديماً، حدثتهم عن حبّ جدتي لي ثمّ أخبرتهم عن طريقتي في شرب الحليب وكيف أسكب ما تبقى منه في دلوّ الماء الذّي كانت تحتفظ به أمي لغسل الأشياء، ورحت أخبرهم عن اليوم الذّي كنت أتسلق فوق الباب الخشبي الكبير فسقطت و سقط الباب فوقي، حينها بدأ أنفي ينزف الدم بغزارة، وحدثتهم

كذلك عن اليوم الذي سقطتُ على رجلي وسقطت فوقي حجرة كبيرة مما أدى إلى إصابتي بجرح كبير مازالت آثاره إلى يومنا هذا، نعم كنت فتاة شقيّة جداً أثير الفوضى دائماً، لم يكن أحد يتكلم معي أو يرفع صوته في وجهي خاصة أمام جدّتي التي كانت تدافع عني في كل حالاتي، ثم حدثتهم عن والدهم مراد حدثتهم عن نجاحاته في عمله عن إخلاصه في كلّ شيء أخبرتهم أنّه كان رجلاً مثالياً ، ثم بدأ صلاح الدين يتذكر مواقف حدثت له مع والده مراد أما نور فهي لا تتذكر سوى بعضاً من ملامحه لأنه عندما توفي كانت صغيرة ، تخبرني دائما بأن ذاكرتها لا تحتفظ بالكثير وأنها سريعة النسيان، ربما لأن ذاكرة الأطفال لاتحتفظ بالصور طويلاً.

ذكرتهم أيضا بالأيام التّي قضيتها هنا برفقة والدهما مراد كان وقتها صلاح الدين لا يزال صغيراً، وكنت

حاملاً بنور في الشهر الأخير حين بدأ ألم المخاض يتفاقم معي شيئاً فشيئاً بعد منتصف الليل وقام مراد على الفور بنقلي إلى مستشفى التوليد، هناك حيث ولدت نور التّي أسميتها تيمناً بنور الصباح الذي أشرقت به إلى الحياة، ضحكنا معاً على المواقف التي مرت بنا، كانت جلسة مغرية وممتعة بالأحاديث والأسمار والأحاجي ذكرتني بالليالي التي أمضيناها مع جدتي حين كنا نجتمع حولها في ليالي الشتاء الباردة، كنا نسمع صوت الأمطار وصفير الرياح يسمع في جوف الأسرّة المكسوّة بالصوف، لقد كان زمناً جميلاً رغم برودة الشتاء وضعف إمكانية مواجهته مادياً، أتذكر أن أغلب العائلات في أغلب الحارات كانت تعاني الفقر لكن دفء العائلة والعلاقات الطيبة النقية والألفة التي تخيم عليهم تفوق برد الشتاء، فأسلوب الحياة وقتئذ جميل سهل سليم، نقي وبسيط يسيطر على النفوس

بكل طيب وصفاء نيّة، فلا خلافات ولا أزمات مفتعلة أو مستعصية، بل سارت الحياة بإيقاع نغمات جميلة موزونة.

ما زلت أتذكر كيف كانت جدتي تصنع قهوتها على موقد كحولي في إبريق نحاسيّ، ونحن نجتمع من حولها نستمع لحكاياتها مأخوذين من تلابيبنا بطريقة سردها لتلك الأقاصيص حتى ساعات متأخرة من الليل، ونحن نضع أكفنا حول الموقد أو فوق منقل الفحم النحاسي لنتدفأ ونرى لهيب النار يتراقص في بؤبؤ أعيننا وكلنا آذان صاغية للحكايات التي ترويها جدتي، فعلى الرغم من أن كل واحد منا كان يحاول أن يقاوم النعاس، فترى أحدنا يفتح شدقيه في تثاؤب متكرر لشدة النعاس كنا نجاهد لسماع الحكاية حتى نهايتها، إلا إننا أحياناً نترنح ونستسلم للنوم في أماكننا فتقوم أمي بحملنا إلى أسرتنا.

وبينما أنا مستمتعة بالحكايات مع نور وصلاح الدين واستعيد ذكريات الماضي الجميل اتصلت بي عمتي صفية وطلبت مني الحضور إلى حفل ختان ابنها يوم الإثنين.

- يجب أن تأتي باكراً لتأكلي الطورطة المحلاية هكذا قالت .

اعتذرت لها وأخبرتها بأنّي سأعود إلى بيتي بعد غد، لأن نور تدرس ولا يمكنني المجيء وباركت لها ثم أغلقت الهاتف ، سألتني نور التي كانت تستمع لحديثي مع عمتي صفية فقالت لي:

ـ هل تعلم أنك تحبين هذا الطبق أم إنهم يقيمون عرساً به ؟ لم أفهم.

- في عادات سكان منطقة حي الأمين وما جاورها في صباح يوم الختان تُحضر طورطة المحلاية المعروفة

وتوزع على الجيران وعلى الحاضرين وهناك من يأتي خصيصاً لأجل أن يتناولها.

ثم سألني صلاح الدين بدوره قائلاً :

ـ يعني إنهم يتناولونها وينتهي الحفل ؟

ضحكت من سؤاله ثم أردفت قائلة:

ـ يقيمون حفلة في الليل حيث يجتمع كل الأقارب يضعون الحنة للطفل ويغنون وتوزع الحلويات والمشروبات وفي الصباح أي يوم الختان يعدون وجبة طورطة المحلاية وتوزع ويخرجون صينية كبيرة يجتمع حولها الرجال.

ثم بدأت أحدثهما عنها... ما زلت أتذكر تلك المرات التي حضرت فيها حفل ختان خاصة أيام المولد، الناس قديما كانو ينتظرون يوم المولد أو ليلة النصف وليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، ثم يقومون

بحفل ختان جماعي حيث يجمع أولاد العم والأقارب وأحيانا الجيران لمن لديهم أولاد في سن الختان، وقد كانوا يحتفلون في كل المناسبات ويحيون ذكراها فقبل أيام من يوم الاحتفال بالمولد، تبدأ النساء في تنظيف بيوتهن وطلائها وتعطيرها بالبخور، في حين كانت أصوات المدائح تعلو كل المساجد طيلة أيام الأسبوع ويبخرون الغرف ويطفئون الأنوار ويشعلون الشموع، وفي اليوم الذي قبل الإحتفال يبدأ الناس بذبح الأضاحي وتوزيعها وبعضهم يكتفون بذبح الدجاج وفي ليلة المولد يطبخون الأكلات التقليدية ففي العشاء هناك من تصنع طعام الصفيحة الشامية التي تصنع بالرقاق وبداخلها البصل والطماطم والفلفل بحيث تهرس فيها الطماطم والفلفل والثوم ويخلط الكل ويؤكل معجوناً، وهناك من يطهو طعاماً باللحم الأحمر أو بالدجاج لدى بعض العائلات الغنية، وكذلك هناك

من يطبخونها باللحم والبيض، وفي الليل يجتمعون في بيت واحدة حيث يأتون بالأولاد فقبل الختان توضع الحنة على أيديهم وأرجلهم ويضعون راية في سطح تلك المنازل وهي عبارة عن مناديل ومحارم مع العلم الوطني، ويرشون القطران لكي لا تتسلل الجراثيم ويُلبسون الأولاد لباساً عبارة عن برنس أبيض من الصوف الخالص وقميص خفيف من الحرير وطربوش ويعطوهم مناديل ويلبسونهم بلفحة صفراء أو بيضاء منقوشة، ثم تأتي إحدى العجائز الكبار وتضع لهم الحنة في أيديهم وأرجلهم وتنشد الأخريات مدائح دينية أثناء ذلك ثم يوزعون الحلوى مع المشروبات، وفي صباح اليوم التالي يجتمع الرجال ويأتي الشيخ الذي يختن الأولاد و يضع أمامه قصعة خشبية مليئة بالرمل أو التراب ليضعوا فيها الدم والجزء المقطوع في عملية الختان ويدفنونه بعيداً عن المنازل وكانوا يغنون " طهر

يا مطهر صح على يديك لا تجرح ابني لا نغضب عليك" . وبعد عملية الختان يأتي الأقارب لتهنئتهم ويضعون لهم النقود في الطربوش أو في حضنه وبعضهم يحضر لأهل البيت طبقاً من الحلوى وأحياناً معه قِربة ماء، مباركة وتكريماً لأهل المختون.

الفصل الرابع

في مساء ذلك اليوم خرجت مع نور لنتمشى قليلا بين أزقة حي الأمين أما صلاح الدين ففضل البقاء في البيت، خرجنا باتجاه المدينة القديمة هناك حيث كل المباني بالطوب وقد غمرت رائحتها المكان فكانت تعبق تاريخا مع رائحة تأسرني وسلمت الأمر لخطاي التي ساقتني إلى المباني القديمة بشارع حي الأمين، ذلك المكان الذي شغله يهود العرب منذ القديم وكان حياً تجارياً يسيطر عليه اليهود إلى حد كبير كان أغلبهم يشتغلون في تجارة المواد الغذائية والكتان والحرير وقد كانوا في معظم الأوقات يحتكرون أغلب السلع وبعدها يبيعونها للعرب بثمن غالٍ.

لقد كان اليهود لا يختلطون مع المسلمين، وماكان يميّزهم عنهم هو المنديل الأسود الذي يلتف حول رؤوسهم، حيث ما كانوا يختلفون عنهم في بقية اللباس وقد كان اليهود قديماً لا يركبون الخيل، وذلك امتياز وشرف خاص بالمسلمين، كان لهم معبدهم الخاص الذي حول فيما بعد إلى مركز للصم والبكم وكذلك مقبرتهم الخاصة التي تقع بآخر الحي، ذات مرة حاولت الدخول إلى معبدهم واكتشاف طقوسهم الخاصة بالعبادة، كان ذلك يوم عيد الهيلولة الخاص بهم حيث أقاموه لعدة أيام رأيتهم يذبحون الدجاج ويوزعونه على الفقراء منهم، ويجتمعون للإحتفال به ثم يذهبون للمعبد أتذكر أنه حين وجدت فرصة للتسلل إلى الداخل لم أجد سوى ما تبقى من شموع ذابت بالشمعدانات وهي تنافس الزمن، لم يكن باستطاعة أي أحد منا التجرؤ

والدخول إلى المعبد أو معرفة طقوسهم الخاصة بالعبادة.

مررنا من الأزقة الضيقة التي تحمل بصمات التاريخ كمدخل باب شرقي وسط شرق المدينة الذي بجواره أقدم مسجد، حيث مشينا شارعاً طويلاً وضيقاً وصولاً إلى السقيفة المؤدية إلى المسجد الأموي الكبير عبر باب النوفرة، ذلك المسجد الذي كان له دور كبير في نشر القرآن الكريم وعلومه بين سكان المنطقة وما جاورها، ويعتبر أول مسجد بني بالقرب من حي الأمين وله عدة تسميات سمي بالمسجد العتيق نسبة لقدمه وسمي بمسجد الوليد وهو تاريخ قدوم الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى منطقة الشام ويعد رابع مسجد من حيث الشهرة بعد حرمي مكة والمدينة والمسجد الأقصى، ويقال أنه بني على أنقاض مركز حربي روماني، فبوجود أعمدة معمرة التي ترصو في باحته

غلب اسمها على باقي التسميات، بني مسجد الأمويين من أخشاب الزيتون والعرعار والبازلت وبني بهندسة قديمة وهو عبارة عن تحفة معمارية تعود لألف عام، بالإضافة أن فيه مدرسة قرآنية لتحفيظ القرآن وتعليم الفقه .

كان الوقت يمرّ بسرعة فلم أزل أجوب شوارع المدينة واتنفس عبقها إلتقيت جارة عمتي قديما مع زوجة ابنها، وقد فرحتُ لرؤيتها

_أهلا خالتي.

_ كيف حالك وحال الأهل؟

_ عرفتني صحيح ؟

_ أجل عرفتك ، معقول لا أعرفك؟

_أهلا فاطمة، طبعاً عرفتك، وكيف لا أعرفك وأنت الغالية ابنة الغالية.

_أهذه ابنتك؟!

_نعم نور، اسمها نور.

_ إنها تشبهك كثيراً !!

_نعم، الجميع يقولون ذلك.

_ أخبريني ماذا تعملين الآن ؟

_أحياناً أكتب وأحياناً أخرى أعمل مدققة لغوية لدى إحدى دور النشر هكذا فقط لأمضي بعض الوقت، فأنت كما تعلمين نعيش في حالة من الملل والركود في البيوت نحن معشر النساء.

قديماً كان وقتنا يمضي في النسيج فكانت كل واحدة منا تمضي اليوم عند إحدى الجارات التي تنسج لتساعدها، وكنا كلما ذهبنا لبيت أخوالي في الغوطة نحلب الغنم موسم الحليب ونشبك رؤوس الماشية إلى بعضها بحبل الريق كنا نغلي ذلك الحليب ونخثره

ونصنع منه الزبدة بعد عملية الخض التي تستغرق وقتاً، وإذا كان موسم جز الصوف نعمل على غسله وتنقيته وبعدها نجتمع لبشمه ونفشه بعد ضربه بالمطرقة ثم نقسم العمل واحدة تقوم بجعله على شكل حبال، وأخرى تغزل بالدوك والمغزل، ويصبح عبارة عن خيوط منها الخشنة التي نستعملها في نسج الحنبل أو المرس المتين، أما الرقيقة جداً التي تشبه خيط الصنارة فكانت تستعمل للبرنس ، أما الآن فتغيرت الكثير من الأمور، مع تغير الأحوال وتطور آلات الصناعة التي اختصرت جهد أيام بلحظات.

ـنعم لقد تغيرنا وتغير كل شيء.

ـمارأيك أن تذهبي معنا إلى البيت لتشربي قهوة ونجلس قليلاً ؟

نظرت إلى نور فابتسمت لي .

_نعم فكرة جيدة سأذهب معكما ولما لا أذهب .

فرحبتا بي وذهبت معهما بما أن البيت قريب، كانت زهور زوجة الحاج عبد المجيد منير القاضي المدعو بن القاضي، الذي كان صاحب أقدم محل للألبسة والأحذية والخياطة في قلب المدينة العتيقة في حي الميدان، هناك حيث كانت تسكن عمتي وتزورها جدتي من حين لآخر، وكانت تأخذني معها أتذكر أننا في ذلك الوقت كنا نعاني صعوبة التنقل بين حي الأمين والأحياء الأخرى، فلم يكن هناك سوى حافلتين، كنا ننتظر حافلة ابن العتيق صباحاً في باب شرقي وفي المساء نعود في حافلة بن بازا التي كانت ملكاً لأحد اليهوديين القاطنين بحي الأمين وكانت لا تنقل الناس فقط بل هناك من يأخذ معه صناديق الدجاج أو سلات الأرانب وأحيانا عنزة أو اثنتان .

حين دخلنا البيت رحبت بي الست زهور بلهفة وهي تردد:

ـيا مرحبا زارتنا البركة .

وكررتها عدة مرات، وجدت عندهم عجوزاً كبيرة فالسن أظن أنها في التسعينيات من عمرها قالت لي الست زهور بأنها خالتها، كانت العجوز ذات وجه شاحب مليء بالتجاعيد ترتدي عباءة بيضاء وفوقها الزمالة وعلى رأسها الشدَّة أو كما نسميه العصابة وعلى وجهها وشم كانت تتوشم به منذ القديم أغلب النساء المسنات، حين رأتني رحبت بي ثم أمطرتني بوابل من الأسئلة يُفهم منها التوبيخ:

ـلماذا تأخرت في المجيء ؟ أين كنت؟ أم أن أمك قد أوصتك بعدم زيارتي ؟

فنظرت إلى الست زهور مستغربة ومتسائلة فأشارت اليّ بدورها أن العجوز مصابة بالزهايمر، ثم بدأت تسألني:

ـكم عمرك؟

ـبلغت الثامنة والأربعين

ـهاتي كفك لأراها.

فنظرت إليها ثم أردفت قلت لك:

ـ مدي لي كفك؟

لم أشأ أن أثير غضبها.

ـفأعطيتها كفي وراحت تنظر فيه وتقرب يدي إلى عينيها وهي تتمتم بكلمات مبهمة خفيضة وقالت لي:

سوف تعيشين حياة ضنكى تملؤها الوحدة، لقد مات أقرب شخص لك أما الآن وفي نهاية عمرك تمرضين بمختلف أمراض هذا العصر.

ثم قاطعت حديثها الست زهور عندما رأت تغير لوني وأخذتني معها إلى المطبخ، بينما نور كانت تلعب مع القطة التي كانت عندهم في البيت، أعدت لي الست زهور القهوة و قامت زوجة ابنها بخبز عجينة التنور، وجلسنا نتبادل مختلف الأحاديث عن كل شيء، بعدها استأذنتهم بالذهاب لأن لدي ما أقوم به قبل الذهاب إلى البيت .

مررنا بشارع باب الجابية لأشتري لجارتي ملحفة ومهراس الحطب، سألتني نور عن ذلك وما حاجتها أليه؟

_ماذا تقصدين بذلك ؟

_لا أقصد شيئاً ؟

الملحفة كما يقولون هي عبارة عن قطعة قماش تستر المرأة بها كامل جسدها ولا تترك منها سوى الجزء القليل كي ترى بها أمامها والآخرين، وهناك من تضع في منطقة الوجه قطعة صغيرة تغطي بها وجهها بحيث لا يرى إلا العينين وكانت تسمى العجار، وهذه عادات قديمة في المنطقة حيث يدل هذا اللباس على حرمة وحشمة المرأة ومازال إلى حد الآن يلبس في حي الأمين وفي المناطق القريبة لها.

ثم أشرت لها إلى بعض النسوة المارين بعضهن كن يرتدين الملحفة، ثم سألتني :

_ولماذا لا تلبسين مثله ؟

_منذ أن كنت صغيرة اعتدت أن ألبس أي شيء وأخرج .

_ماذا لو اشتريت واحداً وبدأت أخرج به ؟

_لازلت في الخامسة عشرة من عمرك لكن رغم ذلك فأنا لن أفرض عليك أن تلبسي شيئاً معيناً .

_حسناً . سألتك فقط لا أريد أن أرتديه .

ثم ضحكنا معاً، كانت نور مستمتعة جداً خاصة حين أخذتها إلى سوق الصناعات التقليدية، وانبهرت كثيراً حين رأت أنواع الحلي والإكسسوارات، وكذلك ما يباع من أوان فخارية وألبسة تقليدية، ثم خرجنا ومررنا بمحل ليبيع العطور ومواد الزينة وكذلك الحليّ والاكسسوارات وكانت تريني كل ما يعجبها، في تلك الأثناء كانت هناك عجوز كبيرة تحدث مجموعة من النساء اللواتي دخلن إلى المحل حيث بدأت تحكي لهن عن أدوات الزينة وعن العطور، فقالت:

ـ إن المرأة قديماً لم يتوفر لديها كل هذه الأنواع من الزينة والعطور لكنها كانت تتزين بطرق أخرى وأدوات أخرى فمثلا كانت تزين وجهها بالكحل والحناء اليمني الذي يجلبها حجاج بيت الله الحرام كهدايا للنساء عندما يعودون إلى ديارهم سالمين غانمين، وكانت أكثر الفتيات تتوق إلى مثل تلك الهدايا، وأحياناً تتوشم النساء متوسطات العمر في الأرياف القريبة بالوشم، وتقوم به نساء متخصصات بهذه الصنعة، وتقوم أيضاً تلك النسوة بوضع الأقراط في أذنيها وتزين جيدها بالقلائد والعقود المصنوعة من الخرز وتخرم أنفها وتضع فيه الزميم وتزين ساقيها بالحجول أو الخلخال وكانت تنقع القرنفل والمحلب وتتعطر بمائه.

بقيت بضع دقائق استمع لما كانت تقوله وأشرت لنور بأن تسمع أيضا ثم اشتريت بعض الأشياء التي احتاجها وخرجت من جديد أنا ونور نمشي في حي

القيمرية، ومن هناك حيث عرجّنا إلى شارع مأذونة الشحن وأشرت لنور إلى منزل الشاعر الكبير نزار قباني، ورحت أسرد لها كم كان والدها مراد يكتب لي الأشعار الجميلة، ويحلق بي بعيداً بكلماته الساحرة، وقد كنت أظنها في البداية من تأليفه إلى أن قال لي ذات مرة بأنها يحفظ أكثر أشعار نزار قباني عن ظهر قلب، لقد كان شاعر عصره وملهم الشباب والشابات في زمانه، وفي مشوارنا الذي كنت أريد لأبنتي نور أن تستمتع به كثيراً، عرجت بها إلى متحف نصر الدين الذي كان عبارة عن بيت لأحد التجار الدمشقيين المهوسين بالرسم والفن وقد طلب بعد وفاته بأن يتم تحويل منزله إلى متحف يعرض أهم لوحاته التي اقتناها خلال سفره في دول أوروبا وأيضاً تلك التي كان يرسمها بنفسه، وربما أراد من ذلك تخليداً لذكرى وفاة زوجته الإيطالية التي أحبها ورفضت أن تعود إلى بلادها

بل فضلت أن تموت وتدفن هنا في دمشق، دخلت مع نور إلى المتحف وكنا نشاهد كل اللوحات المعروضة، وقد لفت انتباهها لوحة لفتاتين يحملان طفلاً صغيراً في سلة، شاهدت مدى تأثر ابنتي نور بمشهد اللوحة وأدرك عمق شعورها وأحترم ذلك، فهي ترث كثيراً من صفات حب الأدب مني، وتتمثل بأبيها في لحظات كثيرة، فسألت المشرف هناك عن معناها فقال لها :

ـ قديماً كان من عادات سكان أحياء دمشق القديمة، عندما يتأخر الطفل عن المشي تحمله بنات عمه في قفة ويَجُبن به عند الجيران وهم يرددون " الحبشى مابى يتمشى أعطولو سكيكرة يمشى" فيتكرمون عليه بالسكر أو التمر. وحين سمع نصر الدين بهذه العادة جسدها في هذه اللوحة، وأغلب لوحاته تجسد عادات وتقاليد مدينة دمشق القديمة، وكذلك الواقع المعاش آنذاك.

كانت نور بطبيعتها كثيرة الأسئلة، وكان المشرف في المتحف هناك يجيبها على أسئلتها بطيب خاطر بل ويشرح لكل من يسأله عن أي لوحة وربما يستفيض في التفاصيل عندما يشعر بأن السائل من هواة الفن وشغوفاً بمعرفة المزيد عن الفنان وظروف رسمها وأشياء أخرى لم نكن لنعرفها لولا الشرح الذي نسمعه لأول مرة ، بعد انتهائنا من زيارة المتحف طلبت مني نور أن نخصص يوماً كاملاً كي نزور المتحف فهذه الزيارة لم ترِ ظمأها ولم تشعر بأنها اكتفت، فهي تريد أن تكتب تعبيراً عن كل لوحة من اللوحات، أثار اندهاشي كلامها وربما استغربت من ذلك لكنني وافقت على طلبها، لأنها تعرف ماتريد فهي رهيفة المشاعر تعشق الفن والشعر بل أشعر بأنها لايمكن إلا أن تكون فتاة متميزة في الكثير من الأشياء .

خرجنا بعد ذلك من المتحف ومشينا من طريق طويل في حي ساروجة وصولاً إلى فندق الماجد الذي يقابله شارع آخر يؤدي إلى حي القاعة هناك حيث يقع بيتي .

في بداية الشارع التقيت بعمر المجنون هكذا كانوا يلقبونه رغم أنه لم يكن مجنوناً أو فاقداً للعقل، بل إنه في شبابه أحب امرأة حد الجنون وكانت قصة حبهما أسطورية، ويعرف بها الكبير والصغير لكن والدته لم توافق عليها وأهانتها، فلجأت تلك الحبيبة إلى المشعوذين والسحرة، فقامت بعمل السحر لكي لا يكون لامرأة أخرى، ومنذ ذلك الوقت بدأت حالته تتغير حيث أصبح يحب الانطواء على ذاته، ولا يختلط بالناس ولا يتحدث إليهم كثيراً، ثم مالبث أن بدأ يخرج كل يوم قرب بيتهم، ويجلس صامتاً عند الباب يضم ركبتيه إلى بعضهما البعض، ويتمتم بكلمات غير

مفهومة، وأحياناً يمشي ويغني، فأصبحت الشائعات تدور حول المرأة التي أحبها بأنها هي من قامت بسحره .

ربما جفلت نور عندما لمحته أول وهلة، فقد كانت خائفة حين رأته يقترب منا:

_ أمي إنه شخص مخيف جداً.

_ لا تخافي حبيبتي نور عمر المسكين لايؤذي نملة.

_ شكله الأشعث ونظراته الزائغة ولعابه الذي يسيل من شدقيه كل ذلك يثير الخوف والاشمئزاز.

_ لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم، الله يجازي من كان السبب بوصوله إلى تلك الحالة.

وسرعان ما أخبرتها أنه لا يؤذي هدأت قليلاً، ثم مشيت بضع خطوات إلى الأمام حتى وصلت إلى البيت، كنت قد نسيت المفتاح فطرقت الباب وانتظرنا

حتى جاء صلاح الدين وفتح لنا الباب، كانت الساعة آنذاك قد قاربت السادسة مساء ذهبت أولاً إلى الغرفة لأبدل ملابسي وتركت نور تحدثه، كانت تثرثر كثيراً تحاول أن تحكي له كل شيء دفعة واحدة، فقد اعتادا أن يتحدثا معاً عما يحدث معهما في النهار، ذهبت عندهما وسألت ما إن كانا يرغبان بشرب القهوة معي فقد شعرت بالحاجة لأنعش به ذاكرتي.

لكن نور ردت قائلة:

ـ أمي أشعر بجوع شديد يعد هذا المشوار الطويل.

ـ أوه حبيبتي نور، ليس هناك شيء يؤكل لأني نسيت أن أشتري شيئاً نأكله، لكنني سأتدبر الأمر في المطبخ لاتقلقي.

قمت إلى المطبخ وقد بدأت بتقطيع الخبز قطعاً صغيرة وضعته في البيض ثم الدقيق وبعدها وضعته في

المقلاة، وبعد الطهو مسحت أحد الأوجه بمعجون المشمش ثم حضرت القهوة وجلسنا معاً نستمع إلى نور التي كانت تتكلم عن لوحات الفنان نصر الدين، وعن الانطباعات التي تولدت في نفسها عن كل لوحة، حتى خُيل لي للحظة بأنها هي من قامت بالرسم.

عندما جن الليل وبينما صلاح الدين ونور في المطبخ، ذهبت للغرفة التي ينام فيها صلاح الدين وفتحت الخزانة الصغيرة أخرجت منها المخطوطات القديمة، ووجدت صندوقاً صغيراً، كان بداخله أقلام للكتابة وعقداً صغيرا ينتهي بزهرة نرجس صغيرة، كان مراد قد أهداني إياه في إحدى المناسبات وبعض الدبابيس القديمة، ووجدت مذكرتي الصغيرة التي كنت أكتب فيها يومياتي في الأيام الأولى حين تعرفت إلى مراد، لم أشعر بذاتي فقد افترستني بعض الذكريات المؤلمة، وبوقاحة سيطرت عليّ أخرجتني من الغرفة

حيث غرفتي، فجلست عنوة إلى طاولة الكتابة، فلم استطع أن أكتب حرفاً واحداً، ففي عقلي تدور آلاف الحكايات والقصص كلها تتزاحم في مخيلتي دفعة واحدة، فيضج ذهني بالكثير تدور الأفكار كدوامة من حيث تبدأ وتنتهي كلما كتبت حرفاً رحت أمزق الورقة حتى الكتابة تتطلب ذهناً صافياً،

نهضت من مكاني أشد جسدي، وقفت أمام النافذة حيث تقابلني الحديقة الجرداء التي ذبلت زهورها ويبست أغصانها بعد أن كانت حديقة غناء تعج بأنواع الزهور. أدركت بأن عليّ أن أشغل نفسي بشيء ما، ذهبت إلى الحمام أخذت فرشاة الأسنان وبدأت في غسل أسناني، تأملت وجهي المتعب، وضعت مرهماً مرطباً على وجهي وبينما أنا كذلك حتى جاءت نور، التي ما إن رأتني حتى ابتسمت بكرِ ابتسامة أدركت

عمقها، فبادلتها ابتسامة جوابية، وبدورها فهمت أجابتي:

ـ ماما أنت جميلة كما كنت وستبقين جميلة.

ـ الله يجبر خاطرك حبيبة قلبي ويستر عليك يارب.

ـ طوقت بذراعيها جسدي من الخلف وأسندت برأسها إلى ظهري:

ـ أحبك جداً ماما.

ـ وأنا أيضاً أحبكما كثيراً حبيبتي نور.

ـأمي أريد أن أنام لكنني في الوقت نفسه، أريد أن أسهر وأسمع بعضاً من الحكايات.

ـيجب أن تنامي الآن حبيبتي وغداً نعود إلى البيت.

ـ إذاً نذهب باكراً؟

_لا أظن ذلك، ربما بعد الظهر لكننا سنعود في العطلة ونبقى لعدة أيام.

_حسناً أمي كما تريدين، تصبحين على خير .

ذهبت نور لتنام ولحقتها بعد قليل غير أنه لا رغبة لي في النوم الآن، جلست بعض الوقت قرب النافذة أراقب ظلام الليل والحديقة الجرداء، وسرعان ما بدأت الأمطار بالهطول، راقبت صوت المطر بمسامعي ، وسرحت بأفكاري بعيداً، أحيانا نشعر بتكسرات في عمق الروح وهشاشة نفسية حد الملل، نشعر بإرهاق مختلف لا يصل إلى درجة المرض، لكنه يعكر حياتنا ويشعرنا بأننا نعيش بلا هدف، إرهاق يجعل نبض قلوبنا ثقيلة ومؤلمة ويثقل أنفاسنا لا يحتاج سوى لركوب قطار الإستراحة النفسية ليجوب بنا عبر محطاته الأربعة المشاعر الإيجابية ، السعادة ذلك الشعور المؤقت أو تلك اللحظة التي نعيشها لبعض الوقت

ونسعى لعيشها مرة أخرى، الأفكار السلبية والتي لا يمكننا منعها بل نحاول أن نتعامل معها بإيجابية لتحديات الحياة تلك التحديات التي لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة نفسها، إنه الشعور الذي ينتابنا كثيراً في ليالي الشتاء الباردة، فالشعور بالحاجة لدفء الروح ليس سهلاً.

الفصل الخامس

صباح اليوم التالي قمت بترتيب البيت وأغلقت كل الغرف ووضعت مذكرتي في علبة كبيرة مع بعض الكتب التي كانت هناك وكذلك المخطوطات الروائية لأعيد كتابتها على الحاسوب وأعدل فيها لتكون جاهزة للطباعة، وعدنا أدراجنا إلى بيتنا في قلب العاصمة .

حين وصلنا مررت على جارتي حسيبة لأعطيها الأشياء التي أوصتني بشرائها كان بيتها يقبع قريباً من بيتي ، كانت جارتي حسيبة امرأة جميلة جداً لها شعر أشقر طويل وعينان بنيتان امرأة بالغة الذكاء، تعيش لوحدها مستأنسة بغرفة جمعت فيها العديد من الكتب رصتها بانتظام في رفوف مصنوعة من خشب الكستناء الأحمر، تزوجت حسيبة في العشرينيات من عمرها،

وقد عانت كثيراً خلال فترة زواجها إذ أن زوجها كان ينتقل من إمراة إلى أخرى وفي كل مرة تحاول أن تغفر خياناته حتى جاء اليوم الذي أخبرته برغبتها في الطلاق وأنها لن تستطيع إكمال حياتها معه، وتطلقت منه بعد أن عاشت صراعات ومشاكل عديدة بسببه ومن وقتها عزفت على الزواج مرة أخرى وبقيت لوحدها أخبرتني أن الطلاق مؤلم جداً وأنها عاشت فترة طويلة تصارع أوجاعها، كنت أتساءل دوماً:

ـ ماذا لو أن زوجي مراد على قيد الحياة هل كنت سأعيش معه ألم الخيانة؟ هل كان سيخونني رغم حبه لي لا أعلم؟ ولكني أشك في ذلك، لأن معظم الرجال لا يؤتمنون لو كان معي ربما ما كنت لأمنحه الثقة الكاملة حتى لو لم يخنِ بقلبه.

قالت حسيبة:

ـ أحيانا أشعر بالحنين إلى طليقي ولكنني عندما أتذكر خياناته لي يتحول ذلك الحنين إلى كره شديد دفعة واحدة، لا أعلم نحن معشر النساء نحب من أعماقنا وبإخلاص ولكننا نكره بشدة في الوت ذاته.

ـ أنت ياحسيبة امرأة عانيت الكثير ولكن ذلك لايمنع أن تعيشي حياتك من جديد، فأنت تملكين طاقة من الجاذبية كافية لأن يسعى إليك أي شاب تختارين.

ـ فكرت بذلك كثيراً ولكن الاختيار يصبح صعباً بهذا العمر، لمَ لا تطبقين الأمر على نفسك، ابنتك نور وصلاح الدين لن يقفا مانعاً أمام رغبتك هذا ما أعتقده.

ـ ربما كلامك صحيح ياحسيبة، لكن أمر عدم الزواج بعد فقداني زوجي مراد أمر مفروغ منه بشكل نهائي.

ـ صحيح يا أم صلاح، الحنين لدينا يشبه الموت كلاهما يراود سيرورة أيامنا على غفلة منا دون أن يكون في خلدنا ذرة ريب، إن الموت والحنين خطاهما بانت قاب قوسين أو أدنى من درب نسلكه، إلا أن الفرق هائل بينهما فالموت نهاية أبدية أما الحنين فحي لاذغ يستمر في التنامي، حتى يستحيل إلى لوعة وما خلقت اللوعة لتنطفئ قط بل تشتعل بالداخل أو حتى لتمخض في رحمها أجنة عبارة عن مضغة مرة لا تبتلع.

نعم أنا أشفق على حسيبة وعلى ما عاشته من ألم الخيانة ثم فراق وحنين .

أعطيتها حاجياتها مع الرداء وحين كانت ذاهبة سألتها:

_ لدي مخطوطات روائية كتبتها قبل أعوام ما رأيك أن تطلعي عليها وتعطيني رأيك وترين ما إن كانت تصلح للنشر أم لا فأنا أثق بذائقتك ورهافة حسك؟

_كم رواية لديك ؟

_ ثلاث مخطوطات واحدة عبارة عن قصص والباقي روايتين

_حسنا لا بأس لكن أمهليني فترة فقط .

_نعم أنا بانتظارك .

ثم ذهبت وبدأتُ في تحضير العشاء، حيث قمت بقلي البطاطا وبعض قطع الدجاج أما الخبز فقد اشتريناه في طريقنا، كانت رائحة الطعام مغرية، فجاءتني نور مهرولة:

_ ماما لقد شعرت بالجوع أكثر بذلك متى تنتهين من طهي الطعام؟

كنت أتأمل ابنتي نور التي بدأت تشب للحياة وصدرها النافر أكثر جاذبية، وهي ترتدي بيجاما خفيفة، شعرت بداخلي بأنها ستكون حلماً لمن يستحقها في المستقبل.

_ ماما أنا أتحدث إليك منذ لحظات وأنت شاردة بعيداً، رغم أنك تنظرين إليّ.

_ هه، حبيبتي نور الغالية، نسيت نفسي للحظة، بعد قليل سيكون العشاء جاهزاً.

خرجت نور من المطبخ وهي في حالة تساؤل، أفهم كيف تفكر، إنها ليست فتاة عادية، ذكية جداً، تتساءل كثيراً، أحياناً أفكر كثيراً قبل الحديث معها، أما ولدي صلاح الدين فقد كان يترك العبء عليّ وعلى شقيقته نور إذ يعتبر نفسه الذكر الوحيد المدلل في العائلة،

لذلك كان دائماً يتمثل بدور رب العائلة من دون أن يقوم بواجبات ومتطلبات بيت العيلة، كما يسمونه عرفاً.

بعد العشاء ذهبت نور وصلاح الدين للنوم، أما أنا فقد ذهبت إلى غرفة المكتب، هكذا أسميها منذ البداية واعتبرتها غرفة خاصة بي، حيث وضعت فيها مكتباً صغيراً وخزانة للكتب ، حين دخلت الغرفة وجدتها باردة، رغم أنني كنت ألف جسدي برداء خريفي، لكنني رأيت أن أقوم بإشعال المدفأة، التي مالبثت أن أعطتني شعوراً جميلاً بالراحة، ربما أجسادنا تملك القدرة في الدفاع عنا في مقاومة تقلبات الطبيعة، بيد إنها تبقى قدرة محدودة، جلست في كرسي إلى المكتب الذي كنت قد وضعت عليه حاسوبي الذي أكتب عليه، وعلى الجانب مزهرية بها زهور النرجس الإصطناعية وبجانبها صورة لي مع صلاح الدين ونور وعلى الجدار علقت صورة كبيرة لزوجي مراد، الذي

كلما نظرت في عينيه شعرت بأنه يحدثني ويجعلني أشرد في ذكرياتنا الآفلة، رغم رحيله إلا أن صور ته تلك كان تؤنسني في أحيانٍ كثيرة.

في مواجهتي كانت خزانة الكتب في الجهة المقابلة للمكتب، وقد وضعت فيها العديد من الكتب المنوعة من قصص وروايات وكتب تتحدث عن التاريخ والفلسفة.

في مذكرتي التي وضعتها أمامي والتي كنت قد أحضرتها معي، كانت مذكرة صغيرة أوراقها صفراء قديمة بعض صفحاتها ممزقة، لكنها غالية على قلبي ولها في نفسي مكانة كبيرة وتتميز برائحة تشبه رائحة الذكرات الجميلة، كنت قد اشتريتها في الأيام الأولى التي تعرفت فيها على مراد، وبدأت حينها بسرد يومياتي عليها، أتذكر جيداً حين تعرفت إلى مراد يومها خرجت مع صديقتي إيمان باتجاه الوادي، حتى وصلنا إليه كنا

نسير على إحدى ضفتي الوادي وسط بساتين النخيل الواسعة وصولا إلى مطحنة رشيد الدوماني، حينها مشينا بمحاذاتها حتى وصلنا الحديقة، جلسنا وسط حقول البنفسج هناك حيث وجدنا الكثير من العائلات يجلسون في مجموعات، أما الأولاد فكلهم يسبحون في المياه التي تتدفق من الطاحونة إلى الوادي، أما أنا وإيمان فقد كنا نجلس وحدنا أحضرنا معنا بعض الكعك المحلى والقهوة وقارورة الماء، وجلسنا نتبادل الأحاديث، حتى جاء خطيبها مروان الذي مر بالمصادفة علينا أو هكذا اعتقدت في الوهلة الأولى، وكان برفقته صديقه مراد فعرّفنا عليه وجلسنا معاً لبعض الوقت، تبادلنا خلاله بعض الأحاديث، كان مروان يعمل وقتئذ مراسلاً صحفياً لإحدى الجرائد الوطنية في دمشق العاصمة وكان مراد يعمل معه، تحدثنا عن طبيعة عمله وعن العادات والتقاليد وعن هواياتنا أيضاً، يومها

انتابني شعور جميل فقد وجدت مراد يشبهني في كلّ شيء، تبادلنا نظرات الإعجاب وكان كل واحد فينا يرغب بقول شيء ما لكن لا يعلم ما هو ربما هو شعور الحب الذي يولد مبهماً، في البداية مايلبث أن يتطور إلى إعجاب وسهر وربما تجد في الليل ملاذاً لمشاعرك، لأنك قد تخشى أن تبثها حتى لأقرب المقربين لأن الغموض والإبهام يبقى قائماً في مثل هذه الحالة، بعد ذلك اليوم أصبحت المصادفات تجمعنا دائماً، من دون أن نبوح لبعضنا بما في نفوسنا، ربما كانت نظراتنا إلى بعضنا البعض أول رسل الغرام وآهاتنا وتنهيداتنا أولى رسل الدمع التي تتدحرج أحياناً من دون إرادة منا، في ذلك اليوم الذي لايمكن أن أنساه ماحييت وشكل انعطافة في حياتي غيرت مسارها إلى الأبد، فقد باح لي مختصراً كل ما عانيناه في الأيام التي تلت تعارفنا، أعطاني ورقة صغيرة مكتوب فيها :

_أحبك والبقية تأتي .

وردت في ذاتي:

_ أحبك والبقية تأتي.

فتحت أول صفحة من المذكرة كان مكتوب فيها :

_مراد أنت الحبيب الوحيد ولا شيء بعدك.

وفعلا لا يوجد رجل مثل مراد في أي شيء، ولايمكن أن يوجد أحد يشبهه في أي من الصفات، فكم تناغمت صفاتنا وعاداتنا وحتى نظراتنا وكأنها لحن وأغنية، في كل لقاء تولد سمفونية حب جديدة متميزة.

قلبت الصفحة كنت قد ألصقت فيها الورقة التي كتب فيها أحبك والبقية تأتي وكتبت أنا نفس الجملة تحتها، لا يمكن أن أنسى كيف تمت إجراءات زواجنا بأيسر التكاليف لم يكن هناك أي معارضة من جانب عائلتينا، تقول صديقتي إيمان:

ـ أنت ومراد خلقتما لبعضكما.

قالها أيضاً خطيبها مروان ولكن بطريقة مختلفة، بأننا نليق ببعضنا لتجانسنا في أغلب الصفات.

رحت أتصفح المذكرة وأقلب أوراقها واحدة تلو الأخرى، في حين كانت كل ورقة تحمل عبق ذكريات خاصة بها، حينما رقص قلبه طرباً وهو يستقبل ولدنا صلاح الدين، وكم كنا فرحين بأن أصبحت أكنى بأم صلاح الدين، وهو كذلك، كلانا نعشق التاريخ ونتمثل حقبه الخالدة بالفتوحات والانتصارات، كنا نعشق شخصية صلاح الدين كلما مررنا من جانب تمثاله بالقرب من مدخل سوق الحميدية، لا أدري كيف قال لي فجأة عندما ولدت صلاح الدين قال:

ـ الحمد لله جاء صلاح الدين.

لم أعترض بل اكتفيت بالابتسامة التي تعبر عن الشعور بالرضا والامتنان، نعم هذا هو التجانس الذي عناه صديقه مروان أن نحب معاً وأن لا نحب معاً.

عندما أصبحت أعاني من الحمل بأبنتي نور كان يمرح معي وهو يقودني أحياناً:

_ ما شاء الله يا أم صلاح نور على نور.

أضحك على كلماته:

_ أنت تهون عليّ كي تشعرني بالفرح والسعادة.

_ لا، حبيبتي أنا أحدثك بما أشعر به نحوك وأنت تعلمين أنني لا أحدثك إلا صادقاً.

_ أعلم ذلك يامراد أعلم ولكنني أريد أن أثير دواخلك.

_ لاتحتاجين لإثارتي بأي كلمة، يكفي أن تنظري نحوي بعينيك النجلاوين كي أصبح صريع هواهما.

ـ أنت تضحكني يامراد كثيراً رغم حملي المتعب بنور.

ـ ماذا قلت نور؟

ـ هه، لا أعرف كيف خرجت هذه الكلمة؟ بل لم أقصدها أبداً.

ـ إنها إلهام لك من رب العالمين بأن تسمي المولود القادم بنور سواء أكان أنثى أم ذكراً.

ـ بل سيكون أنثى يامراد هكذا أملي بالله تعالى وسأسميها نور.

ـ أسم جميل وستكون أسم على مسمى.

لم تمضي سوى أيام قليلة لا تتجاوز العشرة أيام، حتى وولدت ابنتي نور، حينها قال لي مراد:

ـ لقد أشرقت نور الصغيرة تحمل كل ملامحك الجميلة.

كنا سعيدين إلى درجة كبيرة، فلدينا ولدان هما صلاح الدين هو صلاح لأخته نور، ونور أخته الصغرى ستكون نوراً له، لذلك دعوت ربي أن يكونا أكثر من شقيقين يحبان بعضهما كثيراً وهذا ما أصبحا عليه مع مرور الأيام.

تذكرت وأنا أتابع تقليب صفحات مذكرتي ذلك اليوم الذي أخبرني فيه زوجي مراد، بأنه سيموت في حادث وأوصاني أن أعتني بنور وصلاح الدين، قال لي:

ـ أنا لست خائفاً من الموت بل خائف على حياتك من بعدي و خائف على ولدينا.

ـ ماذا تقول يامراد كل شيء بيد الله تعالى.

ـ لذلك أنا مؤمن بذلك وأدرك ماذا سيحدث لي.

نعم كان خائفاً علينا وعلى حياتي من بعده وبدونه وكيف لي أن أربي ولديّ من دونه؟ ثم أوصاني أن

أعتني بنور وصلاح الدين وقال بأنه يثق بي جيداً في تربيتي لهما، ضحكت عليه ثم قلت له :

ـالمهم أن تترك لي الإرث الكبير.

فضحكنا معاً حينها، لكنني في الوقت ذاته لن أنكر أنني كنت خائفة جداَ آنذاك، وبدأت أخاف كثيراً حينما يتأخر في المجيء إلى البيت، لأنني لا أتخيل حياتي من دونه فهو كل ما تبقى لي في هذه الحياة، وفي ظل صراعي مع الخوف والمجهول، مات مراد فجأة وانطبقت المقولة التي كنت أرددها دائماً كل ما نخاف حدوثه سيحدث، بالفعل كنت دائماً أتساءل في الموضوع ذاته، وقد أثبت لي موت مراد ذلك ، موت مراد هزمني وأوجعني موت مراد خلف جراحاً لم ولن تندمل إلى الأبد.

مراد الذي لا رجل بعده .

أغلقت المذكرة وجلست قرب النافذة، أتيه في عوالم مختلفة مبهمة،

دائما ما كان يسألني صلاح الدين:

ـ لمَ لم تتزوجي بعد أبي؟!

ـأتزوج هل جننت؟!

ثم أصمت وأنظر إليه برهة ثم أبتسم له أجيبه أحياناً:

ـ والدك لم يمت هو حي في قلوبنا إنه هنا في كلّ مكان، لا ولن يأخذ مكانه أحد حتى أنا هنا أعيش لأجلكما أنت ونور فقط، يبتسم بعدها صلاح الدين وأحيانا تتغير تعابير وجهه لتصبح أكثر حزناً ونضجاً .

ـ أنت أم عظيمة لاتشبهك امرأة.

يعانقني ويغمر وجهه في صدري، أدرك في ذاتي وأهمس: إنه يحمل رائحة أبيه مراد.

ولد مراد في الأول من تشرين الأول، كأنّه يخبر العالم أنّه البداية لكلّ شيء فدائماً ما كان يحب أن يكون البادئ والمبتدِئ في كلّ شيء، وولدت أنا في منتصف تشرين الأول، وكأنه كُتب عليّ الوقوف في منتصف كل شيء، تزوجنا في الثاني والعشرين من شهر أيلول عام ألفين وثلاثة، في العام الذّي سقطت فيه العراق وقبل شهرين من العثور على رئيسها مختبئاً في وكر كما زعموا، كنا نتابع الأخبار دائما فنحفظ تواريخ الأحداث ونربطها بأحداثنا.

بعد عام من زواجنا أنجبت صلاح الدين أول حفيد للعائلة كانت والدة مراد قد أثنت على اختيارنا اسم صلاح الدين فهي تعتز بأصولها الكردية النبيلة، لقد حظي صلاح الدين بحنان الجدة والاهتمام من أعمامه والدلال من أمي وأبي، وبعدها بسنوات أنجبت نور أسميتها نور بإلهام رباني فكنت أنطق اسمها دائما أيام

حملي بها ما لبثت أن أصبحت نور الحفيدة المدللة من أبيها وكلّ من في العائلة اهتم بها، مراد كان أشدهم بالاهتمام أكثر من أي فرد من العائلة، قبل أن نتزوج كان يقول لي دائما بأننا سننجب بنتا تنافسك على حبي لك، سأدللها وأحبها أكثر منك، وكنت أغضب منه وأردد له دائما بأنني سأنجب لك أولاداً فقط، لو لم يمت مراد لكنت أنجبت منه الكثير هذا ما كنا نحلم به عائلة كبيرة يسودها الحب والوئام.

الفصل السادس

في غمرة الذكريات التي أخذتني إلى أعماق ذاكرتي المتوحشة بالألم، غفوت من دون أدنى مقاومة، ولا أدري كيف حصل ذلك، لكنني مالبثت أن استيقظت على صوت ارتطام فردتي النافذة بالحائط، ما أفزعني فنهضت من فراشي مسرعة لأغلقها، فقد كان الجوّ غائماً والسماء رمادية السحنة تبعث على النفور والتشاؤم، كان هذا الشعور يلح عليّ مذ كنت طفلة، يلاحقني بإحساس مخيف لون هذا الجو، ليس لأن مراد مات في مثل هذا الفصل، بل لأنني أشعر بنفور واختناق منه، شعرت بشعور طافح بالثقل من ذلك، وقد هممت بالعودة إلى مخدعي، كي أتابع نومي القلق، لولا أنني تذكرت، أن نور عليها أن تدرس هذا

اليوم، أيقظتها قبل وقت الذهاب إلى المدرسة بساعة، فهي تميل إلى أن تكون عنيدة في أحيان كثيرة، وتحب النوم في الصباح ويصعب عليّ إيقاظها، أحيانا أضطر إلى أن أحملها من السرير أو إلى الحمام وأغسل لها وجهها، كي تستعيد نشاطها، وأحيانا أفتح عليها النافذة، ربما عائد ذلك إلى الدلال الذي وجدته من أبيها مراد، ومن أهله وأهلي فقد كانت الفتاة الأكثر رعاية واهتماماً، ربما لديها كاريزما جاذبة للجميع، لذلك لم أجد أو حتى سمعت أنها تكره أحد أو خاصمته، من أي جنس كان، ليست كونها ابنتي، لكنها كالملاك بحق.

بعد صراع طويل قامت نور إلى الحمام وغسلت وجهها، ثم جاءت إلى المطبخ لتشرب القهوة، وهي عادة ورثتها من أبويها إذ لايمكن أن تتناول شيئاً قبل أن تحتسي فنجان قهوتها، خرجت بعد ذلك على الفور من

المطبخ، في حين كان صلاح الدين كعادته يذهب إلى المعهد مساء فقط.

حين خرجت نور أعددت كوباً آخر من القهوة وذهبت إلى غرفة المكتب، وفتحت الحاسوب لأتصفح بعض المواقع حتى سمعت طرقاً متوالياً على الباب فذهبت لفتحه كانت جارتي حسيبة هي من أتى .

ـ صباح الخير فاطمة كيف حالك اليوم؟

ـبخير والحمد لله، وأنت كيف حالك؟

ـ أنا كما تريني في كامل صحتي وعافيتي الحمد لله، هل ذهبت لزيارة أقاربك في حي الأمين؟ وكيف هي الأجواء هناك ؟

ـ جارتي العزيزة حسيبة، رأيت أن الوقت غير كاف لزيارتهم، فقد أخذت نور ومشينا في الحارات القديمة وكذلك سوق الصناعة التقليدية والمتحف وفقط .

_حسنا فهمت عليك فاطمة، في المرة القادمة سأذهب معك الى هناك.

_ يسرني ذلك عزيزتي حسيبة، سنذهب بعد أن تنتهي نور من الامتحانات.

_حسناً اتفقنا إذاً؟

_ أجل حسيبة وهل اختلفنا يوماً؟

_لا إنما من واجبي أن أحدثك بما يجول في خاطري، لقد جئت لأسألك إن كان عندك كتاب يتكلم عن ما عاشه سكان حي الأمين خلال الثورة؟ أو كتاب يتكلم عن المعارك التي حدثت هناك.

_ أمم، لا أظن أنه لدي كتب تاريخ تتكلم عن سكان حي الأمين، لما لا تبحثين في الأنترنت ؟ أعتقد إنه أفضل وسيلة مجانية متاحة للجميع.

_ليس لدي الوقت الكافي، ولا أعرف كيفية البحث في برامج الحاسوب.

_ ألا تعرفين أي معلومة ولو واحدة عن أي معركة حدثت هناك؟

_أملك بعضاً من المعلومات، ربما لاتخدمك في غرضك.

_ قولي لي بالضبط ماذا ترغبين ؟

اريد أن أكتب مقالا عن أحد المعارك التي حدثت في حي الأمين وفي بعض المناطق القريبة منه .

_حسناً حدثتني عمتي ذات مرة عن معركة حدثت في حي الأمين ومعركة أخرى في سيدي مقداد وامتدت لتشمل أكثر أحياء دمشق، سأسرد لك وركزي معي جيداً .

_أثناء الثورة التحريرية بمواجهة الفرنسيين كانت منطقة حي الأمين هادئة، وبعيدة كل البعد عن أحداث الثورة في الغوطة وفي بعض المناطق الأخرى، غير أن بعضاً من المجاهدين هاجروا إلى المناطق القريبة، وانضموا إلى صفوف الثوار في الغوطة الذين كانوا أكثر شراسة ومنعة، وتأتيهم الإمدادات من كل المناطق والمدن القريبة، وذات مرة استطاع جماعة من أهل المنطقة من الاستيلاء على قافلة فرنسية كانت تمرّ من هناك في الخط الرابط بين حي الأمين وسيدي مقداد، وكان المكان الذي حدثت فيه المعركة يتميز بجغرافية لايعرفها الفرنسيون، بالقرب من مقام الصحابي الكندي، حدثت المعركة، أتذكر أنني زرت المكان ذات مرة، وقد لاحظت أن المجاهدين الذين نصبوا الكمين لقافلة العدو كانوا قمة في الذكاء، وعلى رأسهم شباب الحي وشاركهم عدد من المجاهدين في أحياء

الشمال والغوطة، وقد سمعت بأن من وضع خطة الهجوم أحمد التقي الذي كان مطلوباً للفرنسين ، وهو يفتخر بأنه من سكان حلب ولا أحد يعرف معلومات عنه بل كان شخصية ثورية غامضة، ويُقال بأنه تلقى الأمر من قادة الثوار خارج الشام، وكلف بالأمر شكل شخصي، لا أعرف لماذا؟ لكن في النتيجة نجحت خطة الهجوم، وساعده في ذلك، مكان المعركة فالطريق بعد مسافة من مقام الصحابي الكندي، يتكون من منحدرات عدة ومنعرجات تحجب الرؤية، أما اختياره للزمان فكان موفقا إلى حد كبير، حيث اختاروا يوم السبت الذي يعتبر نهاية الأسبوع فضلاً عن ذلك هو يوم مقدس لدى الطائفة اليهودية المتواجدة في منطقة حي الأمين، فضلاً عن كون يوم الأحد هو يوم راحة جنود الاحتلال الفرنسي، بحيث لا يفكرون في شيء سوى الراحة والنوم والترفيه فاختاروا يوم السبت وانتظروا إلى

مابعد صلاة العصر، وهجم المجاهدون الشباب على القافلة الفرنسية المتكونة من شاحنة على متنها أكثر من سبعة عشر جندياً أغلبهم من الذين باعوا أنفسهم للمحتلين، وأصبحوا في نظر الجميع من الخونة، وسيارة أخرى كان على متنها ضابط فرنسي مع مساعده، وبعد القبض عليهم بدأت أصوات المجاهدين في الارتفاع مكبرين ومهللين بالنصر العظيم الذي لولا خطة تقي الدين لما حالفهم هذا هذا النجاح الكبير، حيث تم القضاء على الضابط الفرنسي والجنود، بعد أن استولوا على كل الأسلحة التي كانت معهم وتعتبر هذه المعركة فاتحة خير، ومنها بدأت مساهمتها في دعم ثورة التحرير وهذه المعركة خلدها المجاهدون بنصب تذكاري شاهد عليها يتناقل وقائعها جيل بعد جيل ، ثم قاموا بعملية أخرى في واد بردى، الذي يقع على بعد عدة كيلومترات، من منطقة سيدي

مقداد، حيث تم القبض على مجموعة من الجنود الفرنسيين، وقتلهم جميعهم، وأخذوا كل أسلحتهم والتي هي عبارة عن رشاش ومجموعة من المسدسات وعلب الرصاص المختومة.

كانت حسيبة ذات ذاكرة حية ونظيفة وهي تحمل روحاً وطنية صادقة، ولأجدادها قصص أثيرة مع الاحتلال التركي والفرنسي، لذلك تشعر بالانتماء الوطني الذي أشعر أنها تمتاز به دون غيرها، لذلك كانت تسهب في التفاصيل، فقلت لها:

ـحسناً حسيبة هذا يكفي الآن؛ هذا ما كنت أحتاج اليه بالضبط، لكن أود أن أسألك:

ـهل بدأت في قراءة المخطوطات التي أعطيتك إياها ؟

ـ أجل فقد اطلعت على واحدة منها، تبدو لي منذ البداية مزدحمة بالتفاصيل، مليئة بالأحداث الحزينة والمؤلمة بآن واحد.

ـ إذاً عزيزتي، عندما تنتهين من قراءتها أخبريني بالتفاصيل، كي أطلع على مواطن التقصير وأستدرك النواقص، فأنت متذوقة في القراءة وتملكين حساً رفيعاً قادر على التميز والاستنباط والتحليل .

وبينما نحن نتحدث سمعت صوت صلاح الدين يناديني.

ـأمي أنا ذاهب.

ـ لكن الى أين ؟ والفطور لم تتناوله بعد؟

ـأنا ذاهب مع أصدقائي لبعض الوقت.

ـحسناً حبيبي كن سعيداً واعتني بنفسك أكثر .

فقالت لي حسيبة بعد ذلك:

ـ ما رأيك فاطمة أن نخرج إلى المكتبة ونشتري كتباً وفي طريقنا نمر على الإسكافي لأصلح حذاءي .

ـ لابأس، ليس لدي أي مانع ولاسيما أن نور لم تعد بعد، لنخرج اذا قبل أن تعود نور .

ارتديت ملابسي إضافة إلى معطف خشن ملائم للجو الذي كان بارداً والرياح تعصف بشدة، وهناك في مقهى قريب من المكتبة ارتشفنا الشاي المحلى بالعسل وبعض قطع البسكويت، استمتعنا ونحن نتكلم عن الكتابة والكتب والمثقفين ثم ذهبنا الى المكتبة، حيث اشترينا بعض الكتب وخرجنا مروراً بالإسكافي القريب من البيت، فقد لفت نظري سن الإسكافي الذي كان شاباً صغيراً في الثالثة والعشرين من عمره، ذو أخلاق حسنة، بل معروف بحسن أخلاقه وتربيته، يعيش وحيداً منذ أن رحلت والدته إلى منطقة أخرى، كان محله صغيرا لا يتسع سوى لشخصين، غير إنه متقن

لعمله ومتفان به إلى درجة كبيرة، لذلك كان يأتيه كل أهالي الحي لإصلاح أحذيتهم، لا يهوى الثرثرة ولايكثر الحديث مع الزبائن، على خلاف أصحاب المهن الأخرى كالحلاقين، أخبرتني حسيبة ذات مرة بأنه كان يعيش مع والدته بعد أن توفي والده، وكانت أمه امراة متسلطة يكرهها الجيران، إذ أن صوتها حين تصرخ يسمعه كل من في الحي وكانت تسوم ابنها أسوأ أنواع العذاب وتضربه كثيراً عندما كان صغيراً لأتفه الأسباب واذاقته جراء ذلك كل أنواع العذاب ، يُقال بأنها كانت تواعد رجالاً في الليل وحين كشف ابنها الأمر، قامت بطرده من البيت، بحجة كي يتعلم الاعتماد على نفسه، وبعد أيام حاول الجيران اصلاح الأمر ليعود ابنها مرة أخرى فهي في النهاية أمه، لكنها لم تكن تتورع عن شتمه بكل أنواع الشتائم:

_ لقد عاش طفولة مزرية يافاطمة، عاش يتيم الأب والأم معاً فأمه مكروهة من جميع أهل الحي، لأنها سليطة اللسان وكذلك لأجل بطشها وجبروتها.

_مؤلم ياحسيبة، فعلاً أتساءل أحيانا، هل توجد بعض الأمهات بمثل هذه القسوة؟ لربما لم تكن والدته الحقيقية؟

فتذكرت للتوّ صديقة حسيبة التي التقيت بها في إحدى زياراتها في منزل حسيبة، حيث بدأت في سرد حكايات عن حياتها قبل أن تتزوج، أخبرتنا عن أمها كيف كانت تعنفها و تجبرها على القيام بأعمال البيت، وكيف كانت تسكب الماء البارد عليها إن هي تأخرت في إنجاز أحد الأعمال، أخبرتنا عندما كبرت وبدأ صدرها في البروز، كيف ضربتها وألبستها ثياباً كبيرة عليها، لم تكن بينهم حوارات الأم وابنتها بل كانت تضربها إن تكلمت أو ردت أو سألت أي سؤال، لقد

قرأت في أحد الكتب أن الضرب سلوك غير سوي، إذ أنه يساهم في خلق كبت عميق في الشعور وخوف من التعبير وقد تتكون عقدة الاستحقاق والخضوع وكذلك النقص في كثير من الأحيان، وربما يخلق شخصية مهزومة غير قادرة على الثقة من نفسها.

دخلت حسيبة إلى دكان الإسكافي وبقيت أنا عند الباب أتأمل المارين من هناك، وبينما نحن عائدتين إلى البيت، اتصلت بي مديرة دار النشر لتخبرني بأن أطلع على الإيميل الخاص بي، لأنهم أرسلوا لي روايات كي أدققها وأزودهم بتقرير خاص عن كل رواية .

الفصل السابع

بعد أن عدت أنا وحسيبة توادعنا ثم افترقنا قرب بيتها، وعدت إلى البيت لأعمل في تدقيق الروايات، التي أرسلت لي من دار النشر التي أتعامل معها عادة، وقبل أن أشرع في العمل كن عليّ أن أجهز الغداء لنور، أما صلاح الدين فيعود مساء كعادته، قمت بتحضير كوب من عصير البرتقال الذي أحبه وأشعر بانتعاش لدى تناوله، ذهبت إلى المكتب لتشغيل حاسوبي والبدء في تحميل الملفات التي أرسلتها لي دار النشر .

من عادتي في القراءة والتدقيق، أقوم بتدوين الكثير من الملاحظات، وفي أول مخطوط فتحته وبدأت في قرائته وتدوين ملاحظات عن كل صفحة أطالعها، كي

أخلص إلى إعداد تقرير مفصل مستوفي لجميع عناصر اللغة والحبكة وسلامة الألفاظ والتراكيب وأسلوب السرد، حتى انتهيت منه في الأسبوع الأول، لأنني أعتبره بمثابة الأمانة والإخلاص في العمل، وعليّ أن أبادلهم بالثقة ذاتها.

ومن ثم بدأت العمل على تدقيق المخطوط الآخر، بدايته كانت شائقة جداً، أدركت ذلك منذ الوهلة الأولى، فمن خلال الفقرات الأولى وجدت أن الكاتب متمكناً في السرد وبطريقة مذهلة جداً، حيث تكلم عن الحقبة التي عاشتها دمشق خلال الثورة على الفرنسيين، بأسلوب سهل وسلس وبسيط، ثم ذكر ماعاشه الشعب آنذاك من معاناة في المدينة وفي القرى، بعدها تكلم أيضاً عن الحالة الاجتماعية والمادية والتكاتف بين الناس، وهي الحالة التي كان الجميع يعيشها، وأسهب في ذكر عدد القتلى في بعض المدن وعن أكبر المجازر

التي حدثت آنذاك، تحدث عن العادات والتقاليد في بعض المناطق، وكذلك عن الفقر و الجوع، وتطرق إلى العديد من المواضيع، تساءلت في نفسي عن المدة التي استغرقها الكاتب في كتابته لهذه الرواية، لا بد أنه أمضى عدة سنوات في البحث والكتابة، لأن مثل هذه الأعمال الأدبية الروائية تحتاج إلى مصادر عدة من عدة جهات، لأن الرواية التي يمتزج فيها التاريخ بالواقع، سيكون مادة دسمة للنقاد، ولذلك يجب أن تكون الأحداث التي يتم سردها في الرواية، أن تكون مستندة إلى معلومات دقيقة ومراجع موثوقة وإلا سيواجه الكاتب فشلاً ذريعاً إن لم يتمكن من الدفاع عن عمله أمام النقاد في الصحف وفي الندوات التي ستقام في النوادي والمراكز الثقافية.

لقد اعتدت على أسلوب كثير من الكتاب وأصبح لدى متسعاً من الخبرة، حينما أطالع بعض الكتب

والروايات، أستطيع أن أميّز بين الكاتب الجاد الذي يكتب من أجل أن يفيد المجتمع حيث يقوم بمجموعة أبحاث قبل الكتابة، وأستطيع أيضا أن أعرف الكاتب الذي يكتب من أجل الشهرة كي يدون اسمه على غلاف الكتاب، ويعقد اللقاءات والندوات الثقافية للترويج إلى عمله، وربما يلجأ لبعض الأقلام المأجورة التي تخدم هدفه في الإعلان عنه في الصحف والمجلات وربما في المحطات البث التلفزيوني.

استغرقت في قراءة الرواية وتدقيقها أكثر من شهر ونصف، وأنا في قمة الاستمتاع، وحين أكملت الرواية أرسلت لهم التقرير الخاص بها عبر الايميل الخاص بدار النشر، وشعرت بالرضاء العميق لأنني أعطيت الرواية حقها من القراءة والتدقيق.

في اليوم التالي لإنهائي الروايات، اتصلت بي حسيبة لتخبرني عن المخطوطات التي طلبت منها أن

تراجعها لي، فهمت منها بأنها غير صالحة للنشر في وضعها الحالي، وينقصها تصحيح بعض الكلمات وإعادة صياغة بعض الجمل، كي تكون روايات متكاملة ومتينة.

في الوقت ذاته وحينما أنهيت مكالمتي مع حسيبة، حتى جاءني اتصال من المدرسة التي تدرس فيها نور، فقد أخبروني بأنها مريضة وتم نقلها إلى المستشفى، لحظتها مرّ أمامي شريط الذكريات بالضبط في تلك اللحظة، التي أمسك مراد بيدي وكان يوصيني بأن أعتني بنور وصلاح الدين:

ـ حبيبتي فاطمة نور وصلاح الدين أمانة في رقبتك اعتني بهم جيداً، أريدهما أن يكونا دوماً مرفوعي الرأس، لديهما أب وأم يستطيعان أن يفخران بهما أمام الجميع، أحدهما قلبي والآخر روحي.

كنت أقول في نفسي لحظتها:

ـ ليس الآن وقت البكاء ولا الانهيار.

قمت بالاتصال فوراً بصلاح الدين ليأتيني كي نذهب معاً إلى المستشفى.

كان صلاح الدين متماسكاً على الرغم من محبته وخوفه الشديد على شقيقته نور:

ـأمي لاتقلقي بكل تأكيد أزمة عابرة كشأن كل الطلاب في بداية دراستهم، حيث يكونون قد اعتادوا على النوم والكسل والرفاهية، وأنت تعرفين ابنتك نور منذ خلقتها مدللة العائلة الأكثر، واعتادت على ذلك، سوف أصلك في الحال.

وأنا في دوامة القلق والتوتر الذي أخفيته بمجرد رؤيتي صلاح الدين وهو ينزل من السيارة ويهرع إليّ مطمئناً حالي:

ـ لاتخافي أمي، ستكون نور بخير أن واثق من ذلك.

أمسك صلاح الدين بيدي وهو يقودني فأنا أشعر بما يشبه الدوار، وأجلسني في المقعد الخلفي، بينما جلس إلى جانب السائق الذي لم يكن سوى أحد أصدقائه، فسمعته قد همس له:

ـ نذير أرجوك أن تسرع قليلاً.

عندما وصلنا المستشفى، وقد قال صديقه نذير:

ـ سأركن السيارة في مكان ما وأوافيكما في الحال.

كانت لحظات أشبه بالفيلم السينمائي، وهي تمر علينا في حالة من الاضطراب، هناك رأيت نور شبه نائمة كالملاك اليتيم، وجدت الطبيب عندها والأستاذة التي تدرس عندها وممرضة سألت:

ـمابها نور ؟؟ مابها في الصباح كانت بخير، ولاتشكو من أي شيء، أفهموني مالذي حدث؟

كان صلاح الدين مايزال يمسك بكتفي خشية أن أنهار وأسقط على الأرض:

ـ أمي هدئي من روعك ستكون نورعلى مايرام، لاتقلقي.

ليرد الطبيب:

من أنت ؟

أنا والدتها ... أخبرني أرجوك ماذا حدث ؟

ـ سيدتي، تبين لي بعد إجراء التحاليل الطبية بأن المريضة تعاني من حالة فقر الدم، مايستدعي متابعة حالتها الصحية بشكل دقيق والحرص على تناول أدويتها في الوقت المحدد .

ـدكتور، هل ستبقى في المستشفى طويلاً؟

ـلا . الأمر ليس بهذه الخطورة يمكنك اصطحابها بعد ساعة .

جلست بجانب نور أتأمل براءة وجهها النوراني، وأنا أمسك يدها وأضمها إلى صدري وشعور الفقد كطائر يفرد جناحيه وهو يحوم من حولي هنا وهناك وأنا أعزي نفسي وأشدد من عزيمتي:

_ لا لست خائفة أبداً، أنا لا أخاف، نعم نور بخير وستكون بخير.

بعد أن أمضينا مايقارب الساعة، أمر الطبيب بإعطائنا إذناً بالخروج من المستشفى ركب صلاح الدين بجانب صديقه نذير،أما أنا فقد جلست بجانب أما نور في المقعد الخلفي، في هذه اللحظات كنت أفكر في مراد، كما أشعر بفقده وبالحاجة إلى وجوده بجانبي، إنني أتماسك مرغمة، كلما حدث معي شيء أتخيله ينتصب أمامي بكل تفاصيله التي أحببتها من دون تميز، وبينما أنا كذلك لم ينتبه نذير صديق صلاح الدين للشاحنة القادمة أمامنا، وبات الإصطدام وشيكاً،

فضغط بكل قوته على مكابح السيارة وأدار المقود محاولاً تفاديها، وبينما هو يبذل قصارى جهده ويستدير للطريق الجانبي اصطدمت الشاحنة بالنصف الخلفي للسيارة، آخر ما تذكرته هو صراخ نور وأول ما صحوت عليه هو صوت صلاح الدين، فقد كنت في المستشفى، عاجزة عن تحريك رأسي ولا أشعر بأطرافي أهي حية أم ميتة، كنت أسمعه يقول لي:

_ لقد نجونا يا أمي ، لقد نجونا، وستكونين بخير، كنت بصعوبة أحرك شفتي، أهذي باسم نور؟ نور؟

لست أدري كم عدد الأيام التي أمضيتها في المستشفى، لأنني كنت شبه نائمة طوال الوقت، لكن سرعان ما بدأت أعي ما أنا عليه، وأدرك المحيط من حولي. كانت الممرضات يساعدنني في كل حركة أريد فعلها، وأكثر ما أحتاجهن في النهوض، والمشي بضع خطوات كي أدرب قدمي على المشي، بعد تعرضي

لعدة كسور حادة ، كل ذلك بسبب الحادث اللعين، بعد أيام جاءت طبيبة نفسية، ومعها بعض الممرضات كانت تحاول أن تسألني كل مرة عن شيء ما لتمرن ذاكرتي لأنني كنت على وشك أن أفقد ذاكرتي، وبالكاد أتذكر اللحظات الأخيرة من الحادث فقط حتى تذكرت نور ،سألتهم عدة مرات عنها:

ـ أرجوكم أخبروني هل هي بخير؟

أجابتني ممرضة كانت بالقرب من سريري:

ـ لاتقلقي بشأنها هي بخير اهتمي فقط بشؤونك الآن.

ـ أرجوك أريد أن أتحدث مع ولدي صلاح الدين أين هو لا أراه؟ أخشى أن يكون قد أصابه مكروه؟

كنت أشعر بالضجر والخوف تنتابني حالة من العصبية، أمام إجاباتهم المبهمة والغامضة، مايجعل الخزف يكبر في نفسي، أذكر أنني صرخت بقوة:

ـ أريد أن أرى ابنتي نور؟

لم يجبني أحد أبداً، لكن صلاح الدين الذي دخل إلى غرفتي ويده اليمنى معلقة بعنقه، وحالة الوجوم التي كانت تلون وجهه بالشحوب كانت رسول نعي أخشى أن أصارح نفسي به، أخبرني صلاح الدين، بأن نور في غيبوبة وكلما استفاقت أعطوها إبرة مهدئة ومنومة، لكن الحقيقة كانت غير ذلك، لأن نور كانت قد ماتت ورحلت مثلما رحل والدها مراد إلى الأبد، كورقة خريف مصفرة رحلت بها الريح بعيداً.